الخزانة الشرقية

المقدمة

بقلم حبيب زيات

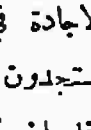

العرب في الشرق والمغرب والاندلس بالاجادة في التشبيهات وهي عندهم فن من فنون الشعر الذي كانوا يستجدون به الملوك والامراء ويتنادمون عليه الخاصة والاغنياء . وقل ان يحضروا مجلساً من مجالس الكبراء دون ان يقترح عليهم فيه وصف ما يستحسن من الطُرَف والغرائب . ولهم في كل ذلك القصائد الطويلة والمقطعات العديدة . ولبعضهم فيها مؤلفات مفردة على مثال كتاب « الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه » لصلاح الدين الصفدي من مخطوطات خزانة باريس (رقم ٣٣٤٥) . ولكنهم قصروا غاية التقصير في شرح ما كان يحيط بهم من مظاهر المدنية وخصائص المساكن والابنية ومرافق الحياة وعادات المجتمع وتفاصيل الملابس والازياء وضروب الصناعة والزراعة والتجارة . مما تتألف منه جملة تاريخ الحضارة . وغاية ما انتهى الينا من اقوالهم فيها عبارات موجزة لا تشفي غليلاً ولا تغني الباحث الا قليلاً . ولا نعلم ان احداً من المنشئين والمؤرخين المتقدمين تنبّه قط لتصوير ما كان حوله وعاينه في زمانه من احوال التمدن واخباره تصويراً يشاركهم في فهمه ملياً وادراك كنهه من يأتي بعدهم من الخلف . ولذلك فاتنا معرفة ما كانت عليه الحضارة العربية في ازهى عصورها في الخلافة العباسية منذ قيامها في بغداد الى حين انتقالها الى القاهرة وزوالها منها بسقوط دولة المماليك في اوائل القرن السادس عشر . وبسبب هذا الاهمال اصبحنا اليوم نجهل كثيراً من حياة اجدادنا وما تقدم لهم من محاسن او مساوئ في هذه الديار الشرقية

وحسبنا شاهداً على هذا الجهل والقصور ان المتوكل على الله العباسي بنى وحده تسعة عشر قصراً من قصور الخلافة ساق الثابشتي اسماءها في كتابه

« الديارات » . وروى انه انفق عليها تقدير اربعة عشر مليوناً من الذهب . ومع ذلك لم يحفظ لنا احد ممن ادركه او جاء بعده نعت قصر واحد منها . فلا ندري لوقتنا شيئاً من نوع بنائها وهندستها ولا ما كان فيها من الزينة والحلى وادوات الترف والنعيم التي تقتضيها جلالة الخلافة . وكان الرشيد قبله قد اتخذ في بغداد قصرًا عظيماً قيل انه جمع نيفاً عن اربعة آلاف من الخدم بين وصائف زبيدة امرأته ووصائف علية اخته عدا من كان فيه ايضاً من الخصيان والفراشين . وقد سكت عن وصف هذا القصر كل من تكلم على خلافته فلا ندري كيف كان هذا الجيش العرمرم يأوي في هذه المقاصير والدور . وهل كانت تعلوها بعض الطبقات وما كان فيها من فرش ورياش وآلة وآنية وتحف وطرف . ولا يخفى على احد ما خسرته اللغة من اسماء هذه المصانع والمرافق والمقتنيات السلطانية . وقد فقدنا بذهابها ثمن موزونة لسد عَوَز الاقلام في هذا العصر الذي تعدَّدت فيه المستحدثات وطما بحر الاختراع والابتداع .

ومن مدهشات القدر والقضاء انه لم يسلم لنا من امَّهات هذه الحضارة العبَّاسية الفائقة او بالاحرى من بُنيَّاتها الا اوصاف مجالس اللهو والشراب والغناء حسبما نقرأها في امثال كتاب الاغاني للاصبهاني وكتاب الديارات للشابشتي . مع ما يتصل بها ويدخل فيها من صفات الاطعمة والاشربة التي كانت تتخذ للخلفاء والوزراء كما عددها لنا لحسن الحظ « كتاب الطبخ واصلاح الاغذية المأكولات » للمظفر بن نصر بن سيار الوراق . وهو غاية في التوسع والاحاطة بالموضوع وفيه ادلة كثيرة على ما كان مستفيضاً حينئذ من لطف المذاق وتزيد التأنق في ملذات المائدة . ومن مراجعته اليوم يسهل علينا احياء ما مات من الفاظ الطباخة التي تخلو من معظمها معجمات اللغة

وبعد كل ما فاتنا من مفاخر الحضارة واوصافها لم يبقَ لنا الا تلقط ما غفل عنه الدهر من الآثار التي تنبئ عما غبر . وان نجمع من هذه اللُّمع المتبددة ما يبعث منه نور كاف لاضاءة بعض الظلمات المكتنفة تاريخ الحضارة العربية . وهو ما عكفنا عليه في السنين التي تفرغنا فيها من التجارة وقضيناها في التردد على دور الكتب في دمشق وحلب وبيروت والقدس والقاهرة . ولما قلّ في

نظرنا ما جنيناه منها دفعنا حب التوسع والاكمال والطمع في المزيد الى تجشم عناء الرحلة الى الديار الغربية لمطالعة ما انتقل اليها من المخطوطات العربية التي فاقت بها الخزائن الشرقية . وظللنا عدة سنوات نتردد بين باريس ولندرة واكسفرد وروما وميلانو وليدن . انقطعنا فيها للبحث والتنقيب والتقلية عن كل ما يشير ولو بطرف خفيّ الى شأن من شؤون الحضارة الماضية وخصائصها في الادب والشعر والتاريخ . وفنون الصناعة . والتجارة . والملاحة . والزراعة . والبناء . والانسجة والالبسة والازياء . والمآكل والمشارب وآداب المائدة . ومواطن اللهو والسكر والطرب وخلوات الملوك والامراء ومجون القضاة والوزراء . وبدَع المتصوفة والفقراء .. وبدائع القيان والجواري الى سائر ما تفردت به المعيشة في عهد بني عباس من المزايا والخوارق التي بز بها الشرق الغرب في اشهر ممالكه وابهى عصوره

وكنا على أهبة متابعة الطواف على بقية الخزائن الاوربية حين فاجأتنا الحرب المشؤومة سنة ١٩٣٩ وحالت دون النية وبلوغ غاية الامنية . فقمنا مُكرهين بما اجتمع لنا في الدفاتر من القيود والتعليقات عن الاصول المخطوطة والمطبوعة . واستخرنا الله في نشر هذه الدروس والفصول على قِصَرها احياناً وقصورها . وارصدنا لها هذا المجموع الذي دعوناه « الخزانة الشرقية » لاقتصاره على ما يخص الشرق وحده والشرقيين في القرون التي سبقت دولة الاتراك العثمانيين . دون اقل تعريب عن الاصول الاوربية . او اقتباس عن تقدمنا من الكتبة والمؤرخين . ووقفنا بالاجمال عند القرن السادس عشر ولم نتجاوزه الا مرة واحدة في كلامنا على خطايا اهل حلب لتحققنا ان ما نقمناه عليهم راجع في الواقع الى زمن سابق .

وستظهر هذه الطرائف والمبتكرات على هيئتنا في اوقاتها : دون ترتيب لها او ملاءمة بينها حسبما اتفقت لنا في اسفارنا وتهيأ درسها في حينها . وحيثما وجدنا غزارة في المادة ومجالاً واسعاً للوصف افردنا لكل مظهر تجلى لنا من مظاهر الحضارة كتاباً برأسه ننشره على حدة على نحو ما بدأنا به في كتابنا « الديارات النصرانية في الاسلام » . وهو غير مقتصر على شرح احوال

الديارات وحده ولكن يتضمن ايضاً اهم اخبار زوارها والمتطرحين فيها من المجّان والشعراء عشاق الخمور النصرانية . فهو مرآة صادقة لما كان يجري قديماً من الخوارق والمنكرات وراء جدران هذه الابنية الدينية . وصورة جليّة من اغرب صور الحانات ومحافل الطرب والسكر في الخلافة العباسية

ومن اهم ما استدعى نظرنا لبيان مفاخر الحضارة التفتيش والاستقصاء عن كل ما يمثل ماضي الصناعة والتجارة قديماً . وفي مقدمته نعت الملاحة الشرقية وما بلغته من المكانة والتقدم في خدمة البحار والاقطار . فجمعنا في الدلالة عليها جزءاً سردنا فيه « معجم اسماء السفن والمراكب في الاسلام » . وقد كلفنا الكشف عنها والامعان في استقرائها لخلو كتب اللغة من معظمها . اشد ما يعانيه الرائد في نفض الغبار وقيافة الآثار لشدان ضالته والظفر ببغيته .

ومن ارفع ابواب الصناعة التي قامت عليها تجارة الادب . واسمى الخدم الدينية واللسانية . علم « الوراقة » ونسخ المخطوطات وبيع الكتب والمصاحف والدواوين . وقد اوليناها حقها من الأثرة والعناية ونشرنا في معناها رسالة أنفاً لم يتقدمنا لاحد كلام فيما دعوناها « الوراقة والوراقون في الاسلام » وجمعنا فيها من الملح والفوائد ما تصبو الى معرفته نفس كل اديب وستتبعها في اول فرصة تتيسر لنا بكتاب استوفينا فيه تاريخ « صُحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام » وفيه رواية كل ما عثرنا عليه بعد التنقيب الشاق والمطالعات العديدة من اقوال المؤرخين والادباء واوصاف البلدانيين في ما اتفق لهم ذكره من انواع الكاغد والرق وعملها في الديار الاسلامية . ونشرنا منه سنة ١٩٤٧ فصلاً منه في مجلة الكتاب (يولية ص ١٣٥٨ — ١٣٦٦) بعنوان « الجلود والرقوق والطروس في الاسلام »

ومن اطيب الدروس الباقية واطربها وصف « المرأة الغلامية في الاسلام » وفيه من نعوت الجواري والنساء وحكاية ما اغربن فيه من الاخلاق والازياء وما ابتدعنهُ من فنون التزين والتبرج . واحتلنّ به من اساليب الفتنة والغطنة لاجتذاب القلوب وإثارة الاشواق . ما لا يخطر تظيره في الظن وما تكاد

تقصر عنه جرأة المرأة الغلامية في الامصار الغربية . وستظهر هذه الرسالة على حدة في ميقاتها

وسوف نتبعها بخاتمة المطاف وبتيمة هذه الالطاف وهي وصف « اللحى في الاسلام » . وفيه كل نادرة يُقضى منها العجب وغريبة يحلو لسماعها الطرب

ومن لوازم الحضارة العربية هذه الالفاظ المولدة والمستيات الدخيلة التي دعت اليها حاجة العصر بعد الهجرة الدلالة على المعاني والاعيان الطارئة . نشأت على حاشية لغة البداوة كالطراز في اطراف الثوب الفاخر.. واختُصّ منها كل فن من الفنون وكل صناعة من الصناعات باوضاع ومستحدثات اخذ ارباب اللغة بالتنبه لها وتدوينها واستعصى علينا اليوم فهم ما يقع الينا منها لغياب كل ما يعين على تفسيرها وتحقيقها بعد ضياع هذه الفنون والصناعات القديمة باسرها واسرارها وآلاتها . وفي الكتابات العباسية بقايا من هذه الالفاظ الحضَرية غلبت عليها العجمة ولا مناص للاديب من حل التازها اذا شاء ادراك ما يقرأه من النصوص والاخبار . ومع ان النظر في هذه الالفاظ المولدة منوط بارباب اللغة ولسنا من المتفرغين لها . رأينا ان لا ندع تقييد ما مر بنا منها عفواً وعَرَضاً اذا تحققنا فائدته وخلو المعجمات من تفسير له شاف او وجدنا في ايراده استدراكاً عليها . او تكملة لها . بالاستناد الى الشواهد الناطقة بالمعنى الصحيح . وربما يجتمع لنا اثناء المطالعة مؤونة كافية لنشر جزء خاص بعنوان « لغة الحضارة » لا تخفى الحاجة الى مثله اليوم يكون كالذيل على تكملة المعجمات العربية لدوزي .

وكان اكبر همّ لنا في زياراتنا دور الكتب مطالعة مخطوطاتها ولا سيما ما كان منها دفيناً منسياً لم يتنبّه له احدٌ ككتاب الطبخ السابق الذكر للمظفر ابن سيار . ولذلك توسعنا جداً في تعريفه وسردنا كل ابوابه لقيمته العالية وعلو شأنه بين تركات الحضارة العباسية . ووصفنا كذلك كل ما ظفرت به يدنا من امثال هذه الذخائر والنوادر في فصول اطلقنا عليها عنوان « دفائن الخزائن »

وربما استوقف نظرنا احياناً نقد بعض المخطوطات المطبوعة حديثاً مما اشتمل

على بعض اخبار الحضارة لاستدراك ما وقع فيها من اغلاط القراءة او الطبع كالجزء الاول من مسالك الابصار للشهاب العمري وهو كل ما ظهر من هذا الكتاب . وكالجزئين الثامن والاول من نثوار المحاضرة للقاضي التنوخي . فضلاً عن بعض دواوين الشعراء الشاميين كديوان ابن الساعاتي في جزئيه المطبوعين . وقد اطلنا جداً في التعقب عليها لعلاقتها بتاريخ دمشق ومتنزهاتها . وافرزنا لهذه النقود والاستدراكات باباً خاصاً استعرنا له عنوان « التنبيه والإشراف » .

وفي النية ان لا نقف عند الجزء الرابع من هذه الخزانة الشرقية التي تأخر ظهور الجزء الاول منها بعد الثلاثة التالية له لاسباب لا حاجة لذكرها . واذا اعان الله وفسح في الاجل ووفقنا في هذه الايام القلقة العصيبة لزيارة دور الكتب التي لم نتمكن بعد من الرحلة اليها على اثر الحرب نظير خزانة كمبريدج وخزانتي برلين وڤينّة وغيرها من اصونة الذخائر العربية سنوافي الادباء باوصاف عيون ما نجد فيها من تركات الحضارة العباسية . وقد اسعدنا الحظ اخيراً بالاطلاع على بقايا خزانتي الاسكوريال ومدريد في اسبانية . ونقلنا منها كل ما وجدنا فيه فائدة وذخراً من دفائن الكنوز الاندلسية .

وانما حملنا على التطوع مدة سنوات طويلة لهذه الخدمة الشاقة على قلة الشاكر عليها والمقدّر لها . مع معرفتنا بعقمها وبُعد كل رجاء للثواب عليها واليأس من كل مكافأة لها لقاء ما تقتضيه من ثقل التكاليف ورزء النفقات الباهظة التي يعجز الفرد المستقل بها . رغبتنا الشديدة المخلصة في الاعانة على نشر العلم الصحيح في الشرق . وان نقوم بقسطنا من مجاراة الغربيين في تعريف سكان مطلع الشمس بجانب من حضارتهم القديمة وما تحلت به من مفاخر ومآثر . وقد جمعنا منها في هذه الدفاتر ما تكبدنا من اجله عناء الاسفار ووصلنا في سبيله سواد الليل ببياض النهار . فما احق كتابنا هذا ان يُختم بقول ابي الصلاء الحصي من شعراء تتمة اليتيمة :

هذا كتاب فوائد مجموعة جُمعت بكدّ جوارح الابدان
وبدائع الإدلاج في ظُلَم الدجى والسير بين مناكب البلدان

نيس (فرنسة) ٣١ كا ١٩٥١

اخبار العالم

اخبار دينية

مؤتمر رهباني عالمي في روما : في الاسبوع الثاني من ايلول اجتمع في روما مؤتمر عالمي للجمعيات والمؤسسات الرهبانية النسائية المتعلقة مباشرةً بالكرسي الرسولي وعددها ثمانمئة وثلاثون وقد مُثلت فيه خمسمائة عائلة رهبانية : مئتان منها مثلتها رئيساتها العامة .

كانت غاية هذا المؤتمر التوفيق بين الحياة الرهبانية وظروف العالم الحالية ، وهذه المرة هي الاولى في التاريخ لانعقاد مؤتمر من هذا النوع .

اهمّ الامور التي تداولتها المؤتمرات اربعة : تقديس النفوس وتهذيب الراهبات والعمل الرسولي والتعاضد بين العائلات الرهبانية . وقد القى الاب الاقدس على المؤتمرات خطاباً تكلم فيه بالخصوص عن الثياب الرهبانية فهو يريدها اولاً معبّرة عن تكريس الراهبة للمسيح وثانياً مناسبة لمقتضيات الصحة فانها ضرورية للعمل . . . وقد تكلم ايضاً في خطابه عن علاقات الرئيسات مع الراهبات فقال بانه من الضروري ان تكون علاقات امّ مع بناتها فالراهبة قد ضحّت حياتها العائلية لتتكرس للمسيح . فيجب اذن على الرئيسات العامة ان يتفقن في حياة الراهبة الاجتماعية اطيب العواطف العائلية واحرّها وان يكون تصرفهنّ تصرّف امّ في اقوالهن ورسائلهن ولو تطلّب ذلك منهن التغلب على نفوسهن . . .

الاضطهاد في الصين : في ربيع هذه السنة من ٣٧ اذار الى ٧ حزيران كان قد زار الصين الشيوعية بعثة ثقافية هندية برئاسة السيدة شريماتي بنديت اخت البنديت نهرو رئيس وزارة الهند . لما قابلت السيدة بنديت شوان لي رئيس الوزارة الصينية أعربت له عن رغبتها في تفقد معاهد ومستشفيات وسجون وكناتس كاثوليكية والتمكّن من محادثة راهبتين كاثوليكيتين فرفض محتجاً بعدم قانونية طلبها . وقد جهد بعض الكاثوليك في التوصل اليها ومحادثتها لكن عبثاً ابعدهم عنها مراقبون كانوا يرافقونها اينما حلّت بحجّة المحافظة على سلامتها . وحاول بعضهم الاتصال بها كتابة منهم عدد سلّم الى الجرائد رسالة ارسلها اليها ولم يكن متأكداً من وصولها . من هذه الرسالة نقتطف فقرات قليلة :

ايتها السيدة . . . اننا لا نقدر هنا ان نخبرك مفصلاً عن الاضطهاد الديني الهائل المتحكم في الصين . . . نكتفي بان نلفتي بنظرك خصوصاً الى شناعة المعاملة التي بها يعامَل سجناؤنا .

انهم قد سيقوا الى السجون بالمئات بحجة ارتكاب جرائم ضد الوطن لكن باختفاء هؤلاء عقائدهم الدينية . . . عن هؤلاء المسجونين لا يقدر اعداؤهم ان يعرفوا شيئاً . . . تدل الادلة ان بعضهم هم في الحياة لكن اين يكونون واين الباقون منهم أفي القبور ام في السجن الصيني الذي يربو هوله على اهوال القبور . . .

اننا نمثل في الصين اكثر من ثلاثة ملايين من الكاثوليك وان مئات الملايين من البوذيين ينظرون الينا بمودة وعطف وممنا يتأثرون لهذه البربرية الفاتكة . اننا نلجأ نتوسل اليك ان تذيعي في الهند وفي العالم ما جعله اذا امكن ذلك اخبار الجرائم العظيمة التي ترتكبها ضد ديانتنا في وطننا اقلية تدعى باسمها تمثل الشعب : اقلية لا ترى في الشرف الانساني الا لفظة لا معنى لها واضاعت لثلاثة سريعاً لولا الجاسوسية العائلة التي تستخدمها .

اخبار عالمية

لبنان : في اليوم الثامن عشر من ايلول اضطر السيد بشاره الخوري الى الاستقالة بعد اعتصاب شعبي دام ثلاثة ايام كانت احزاب المعارضة قد دعت اليه واتحدت لتحقيقه رغم تباين مبادئها وغاياتها . وكان السيد بشاره الخوري قد انتخب رئيساً للجمهورية للمرة الاولى سنة ١٩٤٣ .

والرئيس بشاره قبل استقالته اصدر قراراً قبل به استقالة السيد صائب سلام من رئاسة الوزارة وعين الزعيم فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني رئيساً للوزارة ووزيراً للداخلية والدفاع الوطني وسمه عين وزيرين ليسا من النواب هما ناظم عكاري وباسيل طراد : وزارة ثلاثية انتقالية مهمتها السهر على الدستور والمحافظة على النظام واعداد انتخاب رئيس الجمهورية الجديد

وفي ٢٣ ايلول انتخب المجلس اللبناني باجماع الاصوات السيد كميل شمون رئيساً للجمهورية وبعد الانتخاب قدم الزعيم فؤاد شهاب استقاله وزارته وبدأ الرئيس الجديد استشاراته لاقامة وزارة جديدة لكنه لما رأى بعد مداولات طويلة عقيمة بين الاحزاب تعذر اتفاقها عين وزراء ثلاثة اشخاص من خارج المجلس يمكنهم اجراء الاصلاحات العديدة التي اصرت المعارضة الشعبية على المطالبة بها ومن اهمها النظر في قانون الانتخابات العمومية والبلدية . ولم ير المجلس بدًّا من اعطائها حق اصدار المراسيم التشريعية لمدة ستة اشهر حتى تستطيع اتمام هذه الاصلاحات . وتتألف هذه الوزارة من المير خالد شهاب رئيساً والسادة موسى مبارك وجورج حكيم وسليم حيدر .

مصر : منذ ٧ ايلول بعد استقاء السيد علي ماهر من رئاسة الوزارة المصرية صارت السلطة كلها بيد الزعيم محمد نجيب ويظن البعض ان هذا الامر لم يتم الا باتفاق سري بين الوزير المستقيل والزعيم لكي لا يبقى حد للاحزاب المعارضة ادنى امل للعودة الى الاستيلاء على السلطة بانتخابات جديدة . كان يوم ٧ ايلول للانقلاب مرحلة جديدة في تقدمه الى الامام فيه أوقف عدد من الشخصيات المصرية المعادية وأعدم شنقاً محكوماً في كفر الدوار واشتد بتنفيذ قانون توزيع الاراضي

فالحالة اذن في مصر لم ترجع بعد الى مجراها الطبيعي وقد تبقى زمناً طويلاً على ما هي من التزعزع وعدم الثبات الى ان تنشأ في القاهرة سلطة راسخة تقوم بدور الحكم بين الاحزاب المختلفة والمطامع المتناقضة مثلما كانت سلطة فؤاد الاول مثلاً وهذا يتطلب سنين عديدة فالملك احمد فؤاد الاول هو في شهور حياته الاولى .

الملك احمد فؤاد الاول هو ثالث ملوك مصر المصريين فالسلالة المالكة في مصر تنتسب الى محمد علي (١٧٦٩ – ١٨٤٩) الذي حكم في مصر كنائب ملك باسم شاهاني صدر سنة ١٨٠٥ مع حق الوراثة ولُقّب خلفاؤه باسم الخديوي . ثم سنة ١٩٢٢ صار اعلان فؤاد ابن الخديوي اسماعيل ملكاً على مصر بفضل مداخلة بريطانيا العظمى .

ايران : في ٢٥ تشرين الاول اعلنت الحكومة الايرانية قطع علاقاتها الرسمية مع انكلترا لعدم التوصل الى اتفاق في قضية الشركة الايرانية الانكليزية . ثم في ٢٦ من الشهر عينه اصدر مصدق قراراً بحل مجلس الاعيان الايراني حيث لا يزال يصادم اكثرية مخالفة لسياسته . فلا يزال اذن مصدق صاحب السلطة المطلقة التامة في ايران يضطر الشاه نفسه الى الانقياد له وليس في بلاده من يجرأ على مجابهته رغم ما يواجهه من صعوبات مالية شديدة . وسلطته هذه تقوم على رضى الشعب وتمسكه به وقد يكون وراء الشعب قوة خفية تقوده وبه تقود البلاد حيث تشاء او لا تشاء .

المانيا : للمرة الاولى بعد سنة ١٩٤٥ جرت مقابلات رسمية بين شخصيات من المانيا الشرقية والغربية في ٢٠ و٢١ ايلول . وكان استقبال الشعب العربي للبعثة الشرقية الرسمية اسوأ استقبال خصوصاً في بون ودوسلدورف . فكان بين المتظاهرين المبعدون من المانيا الشرقية والهاربون منها والمخصوص اهالي السجناء المدنيين والعسكريين الذين لم ترضَ بعد السوفيات بردّهم الى بلادهم . وكان المتظاهرون يطالبون باصوات صاخبة بعودتهم لان ابقاءهم في الاسر السوفياتي جور وظلم .

مطبوعات شرقية

من السماء

بقلم احمد زكي ابو شادي

مطبعة جريدة الهدى اليومية بنيويورك ١٦٠ صفحة . متوسط

يطلعنا هذا الديوان الذي استمد عنوانه من احدى قصائده على نفس مرهفة الحسّ بجمال الطبيعة وببؤس مواطنيها . فقد حاول الشاعر ان يودع ديوانه او ما ظلّ منه خير مكنونات صدره فلم تستهوه موسيقى الالفاظ ليقف عندها ولا يتعداها بل نظر الى تكاليف الحياة التي يحياها هو وذووه .

وقصائد الشاعر ليست وقفاً على شخصه ولا على مصالحها بل تتناول تكاليف غيره لانه يعرف حق المعرفة ان في مقدور الشعر ان يغيّر القلوب وان يجد بفعله السحري حركة فكرية تعجز اغلظ الاكباد عن مقاومتها .

وتتأثر هذه النفس الحساسة بأقل الامور لانها تقرأ ما يراه غيرها امرًا تافهاً مبتذلاً وما ذلك الا ميزة الشاعر .

ولقد وفق الشاعر التوفيق كله بان جعل الفاظه لا تزيد ولا تنقص عن الفكرة التي اراد الاعراب عنها فهو لم يخاطب فاطمة كما يخاطب الفاروق والنحاس باشا ولم يعمد الى استخدام الالفاظ الفضفاضة في مخاطبة فتاة صغيرة بل يحدثها بلغة الواقع التي يستعملها في المناسبات الرسمية .

ولئن زانت الديوان رسالتا تقريظ من خليل بك مطران فلا يسعنا الا ان نضيف اليها تقريظنا مع بعض التحفّظ لما بدا هنا وهناك من تطرّف في التعبير عن الهيام والقلب المصدوع بالحب .

ا . ع . خ .

قلب يغنّي

بقلم وديع ديب

دار العلم للملايين — بيروت — ١٩٥١ .

هو كتاب شعري صغير الحجم يقع في ثمانين صفحة قدّم له ناظمه بتوطئة قصيرة الى « اخيه القارئ » فاستماحه عذرًا عن بعض «الاخطاء البيانية واللغوية

التي وقعت له وهو يجهل مكانها او يتجاهل عرفانها . ولقد اكّد الناظم ان « حلاوة الموسيقى في الشعر وروعة التصوير والتلوين فيه شرطان اساسيان ».

لا شك في ان موسيقى «قلب يغني» حلوة رائقة تستسيغها الاذان وتصويره ملوّن برّاق ولكننا لا نستطيع ان نؤكد حقيقةً ان تلك الموسيقى وهذا التصوير يخلقان جوًّا جديدًا . انهما صادران عن شفة القلب لا عن اعماق اعماقه . ولذلك فنحن لا « نعجب بهما كل الاعجاب كما لا ننفر منهما كل النفور » كما ينتظر منا الاستاذ ديب ذاته في ترطئته .

على ان هنالك حقيقة لا بد من لفت النظر اليها : هي في تواضع الاستاذ الذي لا يريد ان يكون غير نفسه فلا يحاول ان يخفي عمق شاعريته او سطحيتها بسيلٍ من الكلمات المصنوعة التي تتجاوب ولا تتنادى عند بعض شعرائنا العصريين ، بل يظهر لنا كما هو في « قلقه » و « ضلاله » و «حذره» و « تصوفه » ويُرينا الحياة في واقعيتها فيجفل ونجفل معه من « غرور » الغواني ومن كل تلك الرقعات البالية التي يحاول بها ابناء الدهر ان يرقّعوا اطمارهم . على ان الاستاذ يعود بعد تصوّفه الغابر الى دعوة ابناء الجيل السادس عشر الفرنسي : شراب وتغريد وقطف ازهار الحياة .

فشل ام نجح الاستاذ ديب في ديوانه ، ذلك ما لا نستطيع البتّ فيه. على اننا نقف معه بين النجاح والاخفاق . كاد ينجح لو لم يخفق وأخفق لو لم ينجح هنا وهناك . ولعله يرضى عنا اذا قلنا انه على مفترق الطريقين . عسى للأستاذ شعر آخر يقوله وعسانا نستطيع ان نحكم على شعره الجديد بوضوح اكثر .

ا. ع. خ.

NAZIM HIKMAT : *Poèmes*. Traduits du Turc, intr. de TRISTAN TZARA, notes par HASAN GUREH. — Les éd. franç. réunies. — 33, rue St André-des-Arts. Paris, VIe, 180 pp.

قصائد ناظم حكمت : قرأنا هذه القصائد التي انبثقت في السجن من نفس نبذت كلّ شيء الّا الحياة . فهي ان غنت عن شيء في صيحاتها فانما تنم عن الثورة واليأس والصخب والغضب . اما اذا لاح منها وميض امل من وقت الى آخر فما ذلك بأمل الشاعر في الحياة الثانية التي يجدها في دين تركيا الاسلامي بل في ان يعيد الى الارض وجهاً افضل بالتعليم الشيوعي .

ويفتخر الشاعر بادية لا حدود لها تطفح في كل قصائده التي لم يدفعه الى نظمها الا الاسباب التي ادلى بها : وهي الاستعمار والرأسمالية وتوغل الاوروبيين في الشرق توغلاً حرموه معه حريته وامتصوا خير ما فيه من مادة حيوية . اجل انها المادية . واي قلب هو ذلك القلب المرهف الحس الكريم الذي يشف من وراء هذه القصائد ! انه لقلب حكمت الذي شهد البؤس ورأى الخبز المفقود الذي ذهب بفقده اهل الفقراء في الحياة فثار . ان حكمت لا يريد ان يؤمن بالمسيح ولا بمحمد لانهما لم يفعلا شيئاً ، متناسياً ان التعليم الالهي على رغم ما فيه من جمال لا يغير ارادات البشر التي لا تريد ان تتغير . الم يبدل تعليم يسوع المسيحي اوروبا عندما اخلص البشر عملهم بموجبه ؟ اولم يكن هذا التعليم في اساس مبرات كثيرة ومنظمات كانت التعبير عن اعمال المحبة التي فجرتها في الافئدة كلمة المسيح الحارة .

ان محبة الانسان للانسان لن تغير شيئاً في العالم ما لم يشع فيها ضرب آخر من المحبة ، محبة إله افتدى البشر وجعلهم اخواناً بدمه وصير بينهم وبين الاله الذي اهانوه سلاماً .

ومعنى المساواة والصداقة هذا الذي تطفح به قصائد حكمت لا بد له من ان يقوم على امر آخر غير التساوي بالثروات لان هذه المساواة لم يقدر لها قط ان تدلت الافئدة اذ ان الشعور عميق لا صلة له بالخيرات الارضية الا صلة ضئيلة كل الضؤولة .

ولقد افضت بحكمت ثورته الى الشتائم ، ليتكلم كافراً ، قد اطلق العنان لفؤاده . ولا شك في ان اقامته الطويلة في روسيا لم تذهب عبثاً اذ تعلم فيها هذه اللغة التي لا تحل معضلة وان يتأتى لها ابداً ان تحل شأناً حلاً حاسماً .

ولئن استشعرنا مثل هذه النفس في ترجمة قصائده من التركية الى الفرنسية وان كانت ترجمة لا غبار عليها فما تكونه هذه النفس في لغتها الاصلية بما فيها من صور وتراكيب وقوالب خاصة وشوايب .

وعلى رغم التحفظ في حكمنا هذا فلا يسعنا الا الاعجاب بعبقرية الشاعر ومقدرته على التأثير واجتذاب الناس .

ا . ع . خليفه